شاعر الصين الأعظم

دو فو

قصيدة خالدة



سِد أ. دِلبات

شاعر الصين الأعظم

دو فو

قصيدة خالدة

سِدْ أ. دِلبـات

محمد قاسم علي

杜甫



杜陵有布衣，

فهرس

الهوامش

المراجع



.... خارطة سلالة تانغ

ـــــــ حدود الصين في وقتنا الحاضر

ما بين النهر الأصفر ونهر اليانغتسي، اماكن زارها وعاش فيها الشاعر .

مُستهلّ

شغف الكاتب

في مطلع عام 2024، قادتني الخطى مرةً أخرى إلى مطعمٍ يقدّم طعاماً شهياً، كنت قد خبرت لذّته قبل أيامٍ قليلة مضت، وتحديداً في أواخر عام 2023. كان المطعم يقدّم طعام السوشي المعروف، في قلب العاصمة لشبونة، وكانت هيئة المكان وما يحمله من رموز وإشارات توحي بأنّه مطعم ياباني. وقد كان الطعام لذيذاً كما في التجربة الأولى، غير أنّ فضولاً عابراً استولى عليّ: تُرى، هل العاملون في هذا المطعم يابانيون؟ فقد رغبت في أن أقدّم لهم كلمة ثناء باللغة اليابانية. بادرتُ إلى سؤال نادلة المطعم، إذ لم أكن قد طرحت هذا السؤال في المرةِ السابقة. وسألتها وكأنني واثق من الإجابة: هل هذا مطعم ياباني؟ فأجابتني: إنّ المطعم صيني. بدت علامات الدهشة على وجهي؛ فقد كان كل ما في المكان من أثاث وشعارات وملصقات يوحي بطابعٍ ياباني واضح .طلبت الطعام ذاته، مع إضافة بسيطة من طبق اللفائف، لأن ابني الصغير قسطنطين يحبّذها. وبعد أن انتهينا من تناول الأطباق، عاودني الشكّ فيما إذا كانت النادلة قد فهمت سؤالي على وجه الدقة، إذ لم أكن واثقاً تماماً من قدرتها على فهم الإنجليزية التي تحدثنا بها. لذلك عزمت على إعادة السؤال بصياغة أخرى. وعند قيامي بدفع الحساب، توجهت بالسؤال إلى الطاهي: هل هذا مطعم صيني؟ وكان ذلك بناءً على ما أخبرتني به النادلة. فأجابني: نعم، المطعم صيني. قلت له، والحماس يملأ صدري: أنا أتحدث الصينية قليلاً، هل سمعت عن لي باي ودو فو؟ قلتها دفعةً واحدة دون انتظار. فأجاب: نعم، لي باي، دو فو، تو فو. وخُيّل إليّ أنّه نطق الاسم على الطريقة القديمة «تو فو»؛ ويبدو أنّ ذلك كان شائعاً في بعض الترجمات السابقة. ولم يكن الأمر مهماً حينها، فقد كان يكفيني أنني وجدت من يشاركني معرفة هذين الاسمين العظيمين. وعلى الفور، أنشدت ما تيسّر لي من الأبيات، فإذا بعلامات الدهشة والإعجاب ترتسم على وجهه. ثم بدأ يحدثني، متسائلاً عمّا إذا كنت مهتماً بالقصائد الصينية القديمة. فأجبته بالإيجاب، وأضفتُ أنني مهتم بتعلم اللغة الصينية؛ لأنني أحب الشعب الصيني والثقافة الصينية، كما أنني أكتب كتاباً عن الشاعر العظيم دو فو. كانت الابتسامة لا تفارق وجه الطاهي. وقبل أن أخطو باتجاه الباب عازماً على الخروج، أنشدت باللغة الصينية، وبفرحٍ يصعب وصفه، عجز البيت الشعري للشاعر لي باي، ذلك الملقب بـ «الملاك المنفي: "أخاله غلالة من صقيع" والطاهي يُنشد:– "ضوء القمر يرتمي أمام سريري،" فتلوت بعدها البيتين بالترتيب؛

ضوء القمر يرتمي أمام سريري،

أخاله غلالة من صقيع.

أرفع رأسي فيغمر ناظري الضياء،

*أُطأطأ رأسي فيلهب جوانحي الحنين.** *

وانا أنســحب مُغادراً، قُلت: وداعاً! ، فأجاب والبهجة ترتســم على مُحيّاه، وداعاً، وداعاً!، أتمنى لك يوماً طيباً!.

على قارعة الطريق، ما لَبِث وقد تحدثت بسرور عن تفاصيل ما جرى لزوجتي آنّا، حيث كانت بصُحبتي، نجول معاً تحت شمس البرتغال اللطيفة.

الخاتمة

لمّا فرغ عالمُ الصينيات ستيفن أوين من كتابه، وكان قد أفاض في الحديث عن ضرورة الغِمار في الترجمة، ختم صفحة الشكر بكلمات يسيرة في مبناها، بعيدة الغور في معناها، فقال: «إنني مدين لابني جورج، الذي أهديت إليه هذا الكتاب، إذ تظل هذه الهدية تذكرني بأن وراء مطالب المكتب، وما يستغرقه إعداد الكتب، عالماً آخر؛ وفي ذلك العالم لا تعود هذه الأشياء كلها ذات شأن كبير.»

وقد خلّف أوين للأدب ثمرة أعوام طويلة من الدرس والتأمل، فجاء عمله في شعر دو فو من أنفس ما أُنجز في الإنجليزية، حتى غدا إضافة باقية إلى تلك اللغة، وإلى مكتبة الأدب العالمي جميعاً. وكذلك صنع نيكولا شابوي في الفرنسية، إذ نقل المجلد الأول من شعر دو فو نقلاً يدل على طول المران، وشدة العناية، وألحق به من التعليقات والحواشي ما يكشف عن رسوخ القدم، ونفاذ البصيرة، وحسن الذوق. فإذا قرأ المرء هاتين الترجمتين، أحس أنه لا يقف بين يدي مترجمين فحسب، بل كأنه يُصغي إلى دو فو نفسه، وقد عاد يتحدث بلسان آخر.

ولما أقبل الشاعر على شفق عمره، مضت أبياته تشق طريقها في أروقة الزمان، ترسم صور الحنين والثبات، وتستبقي من التجربة الإنسانية ما لا تبليه السنون. فاستقرت كلماته في سجل الأدب الصيني، وصارت عزاءً لمن جاء بعده، ومثار تأمل لمن أراد أن ينظر في أحوال البشر وتقلب الأيام. فلما جف مداد فرشاته، وواراه الثرى، لم ينقطع صوته، بل بقي ممتزجاً بنسيج الثقافة الصينية، حتى غدت كل قصيدة من قصائده شاهداً على الإنسان في ضعفه وقوته، وفي فرحه وترحه، وفي أمله الذي لا ينطفئ وإن أحدقت به المحن.

وفي هذا الأفق الواسع، تبدو روح دو فو كالمصباح الذي يهدي السائرين في ظلمات التجربة. فما كتب ليُمتع الذوق وحده، ولا ليُدهش السامعين بصنعة البيان، وإنما كتب ليحفظ للإنسان كرامته، ويشهد على آلامه، ويقيم من الشعر مقام الضمير. وفي هذا السمو ما يليق بشاعر لم يرَ في الأدب زينةً للعقل، بل رسالةً للأمة، وعهداً لا يجوز الإخلال به.

ولم يقف إحساسه عند حدود الإنسان وحده، بل جاوزه إلى الحيوان والنبات، حتى غدا الكون كله شريكاً في وجدانه. وقد أحسن أوين وصف هذه الخصيصة حين قال: «حين ترى عقله يعمل، تغمرك البهجة.» وليس ذلك لأنه كان واسع الخيال فحسب، بل لأنه كان يرى في الموجودات كلها حياة تستحق الرعاية والشفقة. فمن رثائه لصديق، إلى مواساته جاراً فقيراً، إلى بكائه على الديار، بل إلى قصيدته المشهورة في رثاء شجرة النانمو التي اقتلعتها الريح العاصفة، يتجلى هذا القلب الذي وسع الناس والطبيعة جميعاً، فلم يفرق بين ألم الإنسان، وفجيعة الشجرة، ووحشة المكان. ولعل هذا هو السر الذي جعل شعره يعلق بالنفس، فلا يكاد يفارقها، حتى غدا ـ في تجربتي الشخصية ـ من أولئك الشعراء الذين يلازمون

القارئ ما بقي له من العمر. فقد جمع في شعره بين واقعية النظر، وسمو الفكرة، حتى أرسى تصوراً للمثقف بوصفه مسؤولاً عن مجتمعه، لا شاهداً عليه من بعيد.

على أن أعجب ما في أمر دو فو، أن شاعراً بلغ هذه المنزلة في تاريخ الإنسانية، لم ينل من العناية في اللغات السامية ما يوازي مكانته. فما وصل إلى العربية، في أكثره، لم يكن إلا نقولاً عن الترجمات الأوروبية، لا عن الأصل الصيني، فبقيت صورته ناقصة، وغاب كثير من دقائق فنه. وحتى ما شاع من القول إن لي باي أشهر شعراء الصين، ليس في جانب منه إلا صدى لأحكام استقرت في الكتابات الإنجليزية القديمة، ثم انتقلت كما هي إلى غيرها من اللغات. وقد لخص آرثر ويلي هذه المفارقة بقوله: «اعتاد الكتّاب الإنجليز في الأدب الصيني أن يقولوا إن لي باي أعظم شعراء الصين، أما الصينيون أنفسهم فيرون أن دو فو هو حامل لواء الشعر الصيني».

أما ستيفن أوين، فقد جعل منزلة دو فو في مصاف كبار منشئي التقاليد الشعرية، فقال: «هناك شكسبير، وهناك دانتي، وهناك دو فو؛ هؤلاء هم الشعراء الذين أوجدوا القيم التي يُحكم بها على الشعر، وصاغوا المعجم العاطفي لثقافاتهم.» وأما الشاعر الأمريكي كينيث روكسروث، فقد مضى في تقديره أبعد من ذلك، فقال: «في رأيي، وفي رأي أكثر من يملكون أهلية الحكم، فإن دو فو أعظم شاعر غير درامي وغير ملحمي بقي شعره في أي لغة من لغات العالم.» وليس هذا الثناء، على اختلاف قائليه، إلا وجهاً آخر لحقيقة أدركها الصينيون منذ قرون، وهي أن دو فو لم يكن شاعر دولة فحسب، بل كان حارس ضميرها، ولسان وجدانها.

ومن أجل ذلك أيضاً تميز شعره ببراعة فنية قلّ نظيرها؛ فقد أحكم القصيدة المحكمة، كما أحسن النظم الحر، وانتقل بين الأوزان والأساليب انتقال المالك لأدواته، لا المتكلف لها. واستعمل الإشارات الكلاسيكية، وأحسن بناء الصورة، وأدار القوافي إدارة تدل على اقتدار، غير أن هذه الصناعة كلها لم تكن غاية في ذاتها، بل كانت وسيلة لإبلاغ العاطفة في أصفى صورها، حتى إذا انتهى القارئ من القصيدة، لم يذكر براعة الصنعة بقدر ما يذكر صدق التجربة التي حملتها.

ولقد انتهى بي طول المقام مع دو فو، وما أتاحته قصائده من قراءة لتاريخ الصين، حتى وجدتني أميل إلى ما قاله غوته في حديثه عن التقارب بين الشرق والغرب: «من عرف نفسه، وعرف الآخر، أيقن أن الشرق والغرب لا ينفصل أحدهما عن الآخر.» ولعل هذه الكلمة خير ما يُختتم به الحديث عن شاعرٍ لم يكن صوته صوت أمة واحدة، ولا زمان واحد، بل كان صوت الإنسان حيثما وجد، وحيثما حمل قلبه عبء العالم، وجعل من الشعر طريقاً إلى الحقيقة، ومن الحقيقة سبيلاً إلى الرحمة.

شُكر وتقدير

على أنني، وإن كنتُ المتحمِّل الأول لتبعة ما أُثبت في هذا الكتاب، لا أجد بُدًّا من أن أُفصح عن عظيم امتناني لكل من أسهم في إغناء ميدان الشعر على وجه الخصوص، والأدب على وجه العموم، بما أودعه فيه من علمٍ نافع، ورأيٍ سديد، وأثرٍ باقٍ. فما أنا إلا واحدٌ من تلامذة المعرفة، نهلتُ على امتداد السنين من معين الإرث الذي خلّفه العلماء والأدباء، فكان لي منه أوفر الحظ، إذ انفسحت أمامي آفاق عالمٍ فسيحٍ رحب، لا تنقضي عجائبه، ولا ينضب معينه.

وأخصُّ بالشكر المؤرخ مايكل وود، لما كان له من أثرٍ بيّن في هذا العمل، بما أسداه من إلهامٍ صادق، وما أبداه من اقتراحاتٍ نفيسة كان لها أعظم العون في تهذيب مسالكه وتقويم وجهته. كما أتقدّم بخالص الامتنان إلى زوجتي وولدي، على ما أظهراه من جميل الصبر، وحسن الاحتمال، وهما يشهدان انصرافي إلى هذا النص، وانغماسي في معالجته ساعاتٍ طوالًا، تمتد أيامًا متتابعة. فلهم جميعًا مني وافر الشكر، وعظيم العرفان، على ما غمروني به من مؤازرةٍ صادقة، ودعمٍ كريم، كان له أجلُّ الأثر في إتمام هذا العمل وإخراجه على الصورة التي أرجوها.